لا شك أن الصحراء تكون قطاعاً جغرافياً متناقصاً في حياته الحضارية. ومع ذلك فالصحراء ليست مختلطة تماماً من هذه الحياة، فقد قامت فيها في كل عصر وزم زمان نوادي وخلالات للحياة الحضارية، مثل ذلك مدينة بسكرة في الصحراء الجزائرية الشمالية التي كانت قاعدة عسكرية في خطوط الدفاع الأمامية الرومانية. ولم كانت الحياة في الصحراء تتضع خضوعاً شبه تام لظروف الخفافيج عن ذلك أن الحياة فيها تقتصر على المناطق التي توفر فيها الماء. وعلى الرغم من أن بعض التجمعات البشرية قامت خارج الواحات الخصبة، إلا أنه لا بد من أن نعترف بأن الحياة الحضارية ارتبطت ارتباطاً وثيقًا بالواديات التي احتضنت كربات المدن. (5)
والمركزا الرئيسية. فإذا ذكرت الواحات انصرف الذهن إلى الزراعات المرورية والحياة المستقرة والقرى بل والمدن. ففي هذه الجزء الصحراوي ذات الكثافات البشرية الكبيرة نصادف أغلب المدن ذات الطابع القديم الأصيل والمرتبطة بأساليب المعيشة المبتهلة من طبيعة الصحراوات وطنافها. ولا يعني ذلك اطلاقاً أن مدن الواحات تشكل النمط الوحيد للتجمعات الحضرية في الصحراوات. فهناك ضروب ومواعيد أخرى للاستقرار الحضري تتمثل في المراكز التجارية التي تقوم عند تقاطع الطرق والمسارب الصحراوية. كما تتمثل في مدن الاتصال بين الصحراوات ومناطق المناطق القصيرة (الاستب) في الشمال من جهة، وبينها وبين مناطق المناطق الطويلة (السفا) في الجنوب من جهة أخرى. وقد نعت هذه المدن مراعي الصحراوات لقيمها على المواشي بين مناطق متبلتتين من حيث الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية. ومن المدن ما ساهمت الدوافع الدينية إلى إنشائها وازدهارها كمدن إقليم مزاب. وأخيراً وليس آخرها المدن المدنية، وهي تجمعات فريدة في نوعها تجمعت عن استقرار الموارد المدنية كما يوحي بذلك اسمها. وقد عرفت هذه الفئة الأخيرة من المدن في العصر الحديث تقدماً منقطع النظير، وذلك بفضل استغلال سهات الحديد (موريطنانيا) والفحم (المجر) والفساتين (تونس والحدودية العربية المتحدة). على أن البرول (ليبيا والمجزائر) كان أقوى المعاون أثراً في خلق مدن جديدة ظهرت تقريباً على دفعه واحدة، هي تجمعات متنزعة في الفضاء الصحراوي الشاسع، مكونة صورة حضارية غربية عن الوسط الذي تقوم فيه مبانها العامة والخاصة من طابق واحد ومجهزة بالات تكييف الهواء، بها حيوانات وغذاء وفندق سياحية، كما أن بها ملاعب وحدائق وأحواض السباحة.... وكل ذلك لم يكن له وجود دون تكاليف باهظة. مدن يقطنها الرجال - والشبان من الرجال على وجه الخصوص - دون النساء. وتكون عموماً صورة
حضارية ليست من صميم الحياة الصحراوية وإنما هي من مستحاثات العصر.

إن القام لا يسمع لأن ندرس جميع أشكال العمران في الصحراوات. وحسبنا أن حضرة الكلام في مدن الولادات حيث قامت حياة حضارية قدماً جداً قدم الولادات نفسها. على أن هذه المدن تعرضت في الآونة الأخيرة لزرات حضارية اختلفت قوتها من مدينة إلى أخرى. وهذه الهزات هي نتاج عاملين رئيسيين: أولهما الاستعمار، ثانياً اكتشاف الروك المعدني وعلى الأخص زيت البترو. وقد مس هذان العاملان مدن الولادات بدرجات متفاوتة وصور مختلفة بما كان له أكبر الأثر في الشكل الذي اتخذه تطور هذه المدن. ولا بد لنا ونحن نحاول رسم صورة واضحة وضوحًا كافياً لمدن الولادات أن نتجنب الافتراس في ذكر صورها قليل الخطير كي نركز الحديث بنوع خاص على المدن الولادية الكبيرة التي تناولها التحور والتغيير في الآونة الأخيرة.

2- التوزيع الجغرافي

يكاد يتفق المشغلون بالدراسات الصحراوية على التمييز بين ثلاث مراحل للصحراوات: الصحراوات الحادة الشديدة الحفاظ، الصحراوات الحافة، وأخيراً الصحراوات شبه الحافة. والقام لا يسمح بالتحدث عن هذا التمييز والأسم التي بيها عليها، ولا بد من يطلب المزيد إلى أن يرجع إلى المراجع الخاصة بهذا الموضوع. والصحرايات الحافة هي ما يعيينا في هذا البحث. أما فيما يتعلق بحدودها في الصحراوات الكبيرة الأفريقية فقد عينها الأساتذة كابوري بعنوان: أحدهما في الشال وهو الخط الذي يتفحم.
وحدود النخيل الشالي، على شريطة أن يصل تمره إلى النضوج الذي يتبع توسيعه بسهولة. والخط الثاني في الجنوب ويتقاطع الحدود بين نوعين من النباتات الطبيعية، أولهما نباتات حولية معروفة باسم النبات الهالتي، وهي جذاثة ترها الإنس في القسم الجنوبي من الصحراوية، ثانياهما نباتات كرم - كرم وتنتشر إلى جنوبها وتتراها الأبقار.

وفي داخل هذه الحدود بينين من التوزيع الجغرافي لمدن الواحات أن أكبرها حجماً يقع في الواحات القسم الشالي الغربي من الصحراوية الذي ينتمي سياسياً إلى الأقطار الثلاثة: تونس والجزائر والمغرب. وهذا الإقليم غني بالواحات الكبيرة الآلهة بالسكان مما دعا بعض الكتاب إلى أن يعتن به الصحراوية الواحات. ويؤكد توزيع المدن التي يزيد عدد سكانها عن 10000 نسمة هذه الظاهرة. فكما يتضح من الخريطة المراقبة تتركز جميع هذه المدن، وعددها سبع مدن، في الشمال الغربي. وجميعها - باستثناء نوزر الواقعة في الجنوب التونسي - توجد في الصحراوية الجزائرية. وفيا يلي جدول لهذه المدن نورده مع العدد التقريبي لسكانها:

| مدينة الواجهات التي يزيد عدد سكانها عن 10,000 نسمة |
|------------------|---------------|
| بسكرة          | 59,000        |
| الواد           | 12,000        |
| الأغواط        | 25,000        |
| توزر           | 20,000        |
| غردابة        | 13,000        |
| ورقة           | 19,000        |

إذا أضفنا إلى هذه القائمة المدن التي يتجاوز عدد سكانها 5000 نسمة لوجدنا أولاً مدينة آطار (6,000) عاصمة بلاد آدرار، وهي

68

فإذا ما انتقلنا إلى النصف الشرقي من الصحراء الكبرى، وهو الجزء الذي تحكى الصحراء الليبية فذكر شيئاً يلفت النظر هو أن الجماعات البشرية هنافلة العدد. وأكبر الواحات يوجد في فزان، وهي منطقة غنية باللبن، تقع على أقصى الطرقات المؤدية من البحر المتوسط إلى السودان عبر الصحراء. هذا وقد عرفت فزان بفضل موقعها التجاري الممتاز، فترات من الرخاء النسبي، ولكن البلاد تمر في الوقت الحاضر بأزمة خانقة، حتى أن بعض الواحات يبدو وقد اندثر في أرجائها الحمير. ويعد هذا التدهور إلى انقطاع تجارة القوافل وانقراضها. ومما هاجر السكان من فزان، وازدادت أمواج الهجرة قوة بانتشار مراكز إنتاج الزيتون في الشمال وجعل هذا المراكز للسكان العاملين. ومدينة مرزق التي كانت عاصمة سياسية لفزان خلال خمسة قرون متصلاً فقدت حاليًا معظم وظائفها المدينة، ولم تعد لها الأهمية التي كانت تتمتع بها، حتى أصبح يتردد في نفتها الآن بالمدينة.

أما الواحات الخمس المنتشرة في الصحراء الغربية المصرية، وهي سبعة والبحرية والتطوعة والداخلة والخارجة، فسكانها قليلون. وتنظم كل منها عدداً من القرى بتراوح عدد سكانها بين بضع مئات من الأفراد.
وبضعة آلاف منها. ولئن ذلت آثارها الفرعونية أو اليونانية أو الرومانية
على تاريخ عظيم قدم، فكثر الطن أن مرد ذلك مواقعها الاستراتيجية
كتنط ارتكاز أثباتية وملاذ عند الحدود، أو كمراكز تموين للجبهات
التي تميز بها. ولا يعني ذلك بالضرورة أن تكون أكبر عملاناً بكثير
ما هي عليه الآن. هذا وتخرج مصر النيل، أكبر الواحات طرآ -
من نطاق هذا البحث نظراً لحجمها الهائل وظروها الخاصة، مما يجعلها
عالمًا قائماً بذاته.

3- القرية والمدينة في الواحات

المدينة طابع خاص يجعلها تختلف عن القرية من أوجه كثيرة. ويأخذ
العلماء أساسًا للتميز بينهما عددًا من المقاييس المختلفة. فمنهم من يتخذ
عدد السكان وحده أساسًا لهذا التفرقة. ومنهم من يتخذ القياس التاريخي
أو الإداري أو الانتشار السكاني قاعدة للتميز. ولعل التفرقة بين القرية
والمدينة على أساس ضروب النشاط الاقتصادي التي تمثلها السكان وسيادة
بعض الحرف دون البعض الآخر هو أساس قواعد التميز. فالملاحظ أنه
بيتا يعمل السواد الأعظم من سكان المدينة في الصناعة أو التجارة أو
الادارة، أو في كلها جميعًا بنسبة متفاوتة، يعتمد سكان القرية على
الزراعة وتربيه الماشية. ومن ثم فتأتي أسلوب الحياة بين المدينة
والقرية يستمر جوهره في الصف الأول من نوع الحرف المارسة. وإذ
كان الدارس - استنادًا على هذه الاعتبارات والأسس - يتبع بوضوح
الفرق بين المدينة والقرية في معظم جهات العالم فإن الأمر قد يختلف
عليه في بيئة الواحات بسبب تداخل مظاهر الحياة الحضرية والقروية

70
تداخل كباراً في كثير من التجمعات السكانية بما لا نظير له في بيوت أخرى.

والقرية التي يطلق عليها اسم "القصر" في الواحات تتكون من مساكن متلاصقة مبنية من اللبن، ليست للدورة فتحات خارجية باستثناء المدخل. وتفصل مجموعاتها طرق ضيقة نراها طوراً مستقيمة تتقاطع في زوايا قائمة، وطوراً آخر ملتوية ولا سيما إذا قامت القرية على نويع من الأرض أو على سفح تل، والطرقات في العادة مغطاة هي يقية المارة أشعة الشمس وحرارتها المحرقة. ولا جدال في أن بعض هذه القرى طابعاً لحضرياً يتمثل مظهره في السوق والحاميات والمسجد و مختلف الصناعات التقليدية بها. وفي ذلك يقول الاستاذ جوتيه: "إن القصر مهما صغر حجمه فهو ليس بقرية وإنها مدينة من الطين الحاف".

ولكن اتخذت القرى مظاهر المدن فان لدن الواحات بدورها بعض ملامح القرية. وكيف يكون الأمر غير ذلك، وقد نشأت بين النخيل أو على مقربة منه، وما دام الفلاحون يكونون الفئة الكبرى من سكانها، وليس نادراً أن يجد الإنسان زراعي الحيوانات خارج أسوار المدينة فحسب بل يجد من التخطيط الصحراوي للمدن أعداد الساحات الكبيرة في داخلها إلا فيما ندر، بما يضيف عليها بعض الصفات الستوية. ومع ذلك فالمنازل الحضرية تميز عموماً بنوعية بنائها وزخرفتها واجهاتها وتعدد طوابقها فضلاً عن أن مساجدها أوفر عداً وأعظم حجماً، بينها ما ذهبها أكبر علاً، وفياً وراء هذه المظاهر الخارجية فمن المسلم به أن ما يميز حقاً المدينة عن القرية هو وظائفهما.

والوظيفة الأولي لمدن الواحات هي بالضرورة الوظيفة الزراعية التجارية ما دامت المدينة هو مركز المجتمع الفلاحي كا تمتثل الواحة.
ففي المدينة يقوم السوق لتبادل المنتجات الزراعية والحيوانية. على أن وجه الاختلاف بين سوق القرية وسوق المدينة هو أن للاول مواعيد معينة دورية في المصادرة مرة كل أسبوع. وفي ذلك اليوم تخضع القرية مظهر المدينة الصغيرة، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى نشاطها الفلاحية، وكيان القرية مجرد أن ينتهي السوق. فإذا ما استمر التجار وأصحاب الفنادق حول السوق بعجي أيام الاثنين أدرك ذلك المظهر الحضري لسكان المنطقة الذي يجذب نحو أصحاب الحرف الأخرى وتختلف ضروب الخدمات.

ولا يقتصر الأمر في مدن الواحات على تبادل السلع المنتجة محلياً. فمن أسابيع إزدهار حياة هذه المدن تجارة القوافل التي كانت تمجرها أو تجد فيها مقراً لسلعها ولا سيما السلع السودانية التي كانت تتجمع في الواحات لأولاً ثم توزع من جديد في مختلف الإتجاهات. هذا وقد أصيبت المدن الواحية بنكهة قوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على أثر تحرير التجارة الرقيق التي كانت تعد مورداً أساسيّاً لها.

ومن أهم المظاهر الحضرية الصناعات التقليدية التي تمارسها عدد لا يسيئان بكم من سكان المدينة، والتي لا تقتصر مبتدئاً على خدمة المستثمرين من سكان الواحات بل تمتد إلى خدمة البدو العرشي أيضاً. على أن بعض الصناعات أصابها الكساد وأخذت أحيينها تتجاوز رويداً رويداً أمام منافسة بعض الصناعات الحديثة التي استهورت الناس. ومع ذلك فقد احتفظ بعضها بشيء من نشاطه القديم، وخاصة الصناعات الجلدية والخياطه وصناعة الجلود والبسط. ومهما كان الأمر فإن تجمع هذه الوظائف المختلفة يؤدي إلى نوع من التخصص في الأحياء لا يجد له نظراً في القرية. فهذه أولى التواجد المركزية التجارية للمدينة، والتي تتألف من شوارع تحت بها من الحانين الحوانيت والمتاجر. وكثيراً ما
المحور الجديد. 

4- الأسس الاقتصادية لمدن الواجهات

خلال الفترة الاستعمارية

الساحرين الكبرى موزعة الآن بين طائفة من الدول المستقلة، غير أن هذه الصورة السياسية حديثة العهد. فقد كانت الساحرين إلى وقت قريب جمالاً للاستعمار الأوروبي ولا سيما الاستعمار الفرنسي الذي كان يُسهّل نفوذه على أراض فسيحة شاسعة في النصف الغربي من هذه الساحرين، حيث تقع في أطراف الشام تأريخ واقع الساحرين الفلاحين والزروع والتجمعات الحضرية الكبيرة.

ومن أهم ما تختلف عن الفترة الاستعمارية من آثار تعزيز الوظائف الحضرية لمجموعة من المدن، عندما ظهرت فيها الشتات والقواعد العسكرية أو المراكز الإدارية أو كلاهما معاً. فأفراد الحامية المرابطة يتفقون قسمًا من مرتبتهم في المدينة، في متاجرها ومصايدها وأماكن الترفيه والترفية بها، والتي تقوم وترتبط بوجودهم. وتعتبر ميتس هندال آثار في موريتانيا مثلًا جيدًا لمدينة استقامت من بعد سنوات عميقة، وأخذ

73
يدب فيها النشاط، على أن الإنشاء مركز عسكري بها ابتداء من عام 1919. واكتسب ذلك بظهور مركز اقتصادي حدث مما كان له أثره في انعاش المدينة وإشعاع الحياة من جديد فيها. وهي استمرت مدينة شقيقة كمثبتة روحية ودينية لقليل آداب أصبحت آثار المركز التجاري الرئيسي. فهي السوق التي تُراها القيائل البدوية الكبرى، يفقدون إليها لبيع إبلهم وأخلاقهم ولشراء السكر والشاي و"غاز" البرقوق و... ومثل ذلك الحين أصبحت آثار حلاقة الوصل بين السنغال من ناحية المغرب من ناحية أخرى، وزادت أهميتها الاقتصادية والتجارية. وكان من الطبيعي أن تتمتع المدينة ببناء الكهفيات العسكرية والنواة التجارية، ثم بقيام المباني الجديدة التي نشأت عن تحول أعداد كبيرة من البدو إلى الحياة الاستقرار. كذلك ساهمت الوظيفة الحربية بنسعد كبير في نحو مدينتي الأغواط وورقلة حيث يُنبت لهذا الغرض مبانٍ فخمة.

وفي العادة يتسع المجال الحضري كثيراً عندما تقوم مدن إدارية حقة إلى جوار القصر القديم، إذ تجد هذه الواجهة إلى المدن وروافض أخرى من أهمها الوظيفة التجارية. ولله مدينة الوداد من خير الأمثلة التي تستحق الذكر. وأصالة لم تكن الوداد مدينة بل كانت عبارة عن قرية، لا تختلف في شيء كبير عن بقية قرى وواحات الصوف إن لم تكن آنذاك أقل تحضراً من بعضها. ولكن منذ أن وقع عليها الاختيار لتكون العاصمة الإدارية لهذه الواجهات أخذت أهميتها في الزيادة حتى أصبحت أكبر المركز شناها، فيها يقيم كبار التجار وعلى الأخص تجار الحملة، وفيها توجد المكاتب الرئيسية لشركات النقل. وقد أُضيفت هذه الوظائف الإدارية والتجارية على الوداد طابعاً حضريًا عصريًا، وامتتدت أحياناً الحديدة صوب الجنوب الغربي حيث تحلل "الثلات" والمباني العامة.
ومدينة توغرت في مجموعة واحات وادي الريان تعتبر خير تعبر عن مدينة واحة تُعزز وظيفتها التجارية تعزيزاً قوياً لبضائع الري للحوض الارتفاعي الذي يعد من أكبر الأحواض الصحراوية وأكثراً صلاحية للاستغلال. هذا وقد استثمرت مساحات جرداء واسعة إلى حقول وبساتين على أثر تفجّر المياه من جوف الأرض. وبفضل الآبار الدفارة بالماء أمكن ري حوالي 10,000 هكتار ينتجها نحو مليون ونصف مليون نخلة. ووادي الريان هو أكبر إقليم في الصحراوات انتاجاً للتمور (1,000,000 طن سنوياً)، والمنتج الرئيسي للنوع الممتاز المعروف باسم دقلة نور (15,000 طن). وتتوسط مدينة توغرت المنطقة الجنوبية، وهي العاصمة الحقيقية لهذا الحوض. وتتناسب المدينة بنواحي نشاط معتدل، فهي سوق يومية، ومصدر كبير للتمور، ومراكز إداري، علاوة على أنها نهاية خط السكة الحديدية الذي يربطها بعناية وسكيكدة عن طريق قسنطينة.

وقد زوّدت توغرت مؤخراً بمطار.

والشائع في مدن الاحات أن تأتي الوظيفة التجارية في مقدمة الوظائف.

ومن العوامل الهامة في تقوية هذه الوظيفة تقدم طرق الواصلات الحديثة من سكك حديدية وطرق معدة إلى مسار أو دروب تربط الاحات بالأراضي الآهلة بالسكان والتي تشد وراء الطرق الصحراوي، وكذلك بالوادي الساحلية التي تقع على مياه البحر المتوسط. وينطبق ذلك على مدينة توغرت، كما ينطبق على مدينة توذر عاصمة بلاد الحريد في الجنوب التونسي وأكبر منتج ومصدر للتمور التونسية. ومن أقوى أسباب تفوق توذر كسوق تجاري موقعها في نهاية خط السكة الحديدية الذي يربطها بصفاقس. أما بلدة نقطة موجودة في نفس المنطقة فليم تتمد إليها هذه الواصلات، وبذلك ظلت قرية ضخمة (16,000) على الرغم من أنها تضم عدداً من السكان أكبر مما تضمه توذر.
وتوجّل هذه الوظيفة التجارية في أقوى صورها في مدن مزاب وبوهج خاص في مدينة غرداية العاصمة. وقد اكتسب المزابيون شهرة واسعة من خلال عاداتهم وأسلوب معاملتهم، وهم يدركون أنهم متميزون عن سواهم، وفي ذلك ما بُرر الحديث عنهم بشيء من التفصيل.

يُقدر عدد سكان واحات مزاب نحو خمسين ألف نسمة. وهذا العدد كبير بالقياس إلى امكانيات البيئة الطبيعية وموارد الأراضي. وترؤي حدائقهم بضعة مترًا من آبار يبلغ فيها عمق الماء 30 وآثماً 40 أو 00 مترًا، وتتم عملية رفع الماء بواسطة الحجر الحيواني. وإزاء ذلك يضطر المزابيون إلى استراحت الكثيرة من المواد الغذائية بما في ذلك التمر من خارج واحاتهم. والعديد يذكرون أن مزارعهم وbatisاتهم لا تكون موريًا غذائيًا أو اقتصاديًا لهم. بقدر ما تشكل حدائق الترفيه. والظاهرة الطريفة في الأقاليم هي أن للمزابيين دورانًا إحداهما في المدينة والثانية في ظلال بنايتهم، مسكن في المختصر وأخر في البادية. وتراه يقضى وجميع أفراد أسرته العام مناصفة بينهما. وخصوص المزابي سكنه في البادية يُشبع الفيض (من ما هو إلى أوائل ديسمبر) ينحدر فيه الراحة والحرية من المدينة. وإذا رغب المزابيون في امتلاك النخيل قصد التجارة والربح يأتوا إلى واحات أخرى غير واحاتهم وبوهج خاص إلى ورقة القريبة من ديابهم.

وقد قيل في تفسير هذا التنافس المغربي بين فقر البيئة وترف السكان عدد من الأسباب التاريخية والدينية والدوافع الإجبارية. فالزابيون طائفة من الخوراز الإباضية، هاجرت من الشرق إلى المغرب. وفمابلغوا أراضي مزاب اعتذوها مستقراً ومقاومًا لهم على الرغم من جدتها النسبوية، كي يبقوا بعزتهم ما قد عسى أن ينزلون بهم من ضروب الاضطهاد إن.
هم حلوا في الجهات الشمالية الغنية. وقد كان للمزابيين فضل كبير على تعبير هذا الإقليم وزراعة البساتين. غير أن صعوبة العيش دفعت الناس إلى البحث عن موارد أخرى خارج حدود واحاتهم. فعندما يبلغ الصبي أشدهم هاجر إلى مناطق التل في الشمال وهي أوفر ماء وآثراً فحسباً وأشد غنى، فإنها يزاول أعمال التجارة. والخضوع والثأرة قد يوحي إلى الحظ فيصبح من الأثرياء. هذا وقدر عدد الذكور الذين يعيشون في المهنجر ببساطة عدد السكان. ويعتبر المزابيون تجارة البقالة في المدن الجزائرية وهم في ذلك شديد الشبع بأهل جربة في تونس والسويسين في المغرب. ويسط ثور بار تجارهم على معظم الحلفات التجارية المرتبطة بالبقالة. ولعل ممارسة غاليتهم لنفس المهنة مما يقوي روح التكافل الذي يظهر بين الأشخاص المتضمنين إلى نفس المهنة وهو ما يفسّر نجاحهم التجاري. والزابيون يبقون على علاقاتهم وصلاتهم مع الأهل والقبيلة ولا ينتحلون عنها وذلك على الرغم من فترات الغياب الطويلة التي تفرضها عليهم طبيعة التجارة التي يمارسونها. ونادراً ما يصحبون معهم زوجاتهم إلى حيث يعملون وبذلك تظل هجراتهم مهما طالت مدة. فيعودون إلى بلادهم من آن إلى آن، حتى إذا تقدم بهم العمر كانت أرض مزاب هي نهاية المطاف.

والحياة في مدن مزاب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه الهجرة والنشاط التجاري الذي يمارسه الزابيون مما يتيح لهم فرصة الحصول على الأموال الضرورية للعناية بالحولات واحتياجاتها وتغيلها ومنازلها، تلك العناية التي تتطلب نفقات باهظة. وإذا كانت الهجرة عاملًا من عوامل التفكك والتفرق فهناك عوامل أخرى قوية مضادة تقاوم هذا الاتجاه، وتعوي العلاقة المتبادلة بين الفرد وجماعته، وذلك عن طريق الضغط الذي تفرضه الجماعة على كافة أعضائها، ثم عن طريق المذهب الديني والعيرة.

77
عليه، عن طريق العلاقات الاجتماعية المتصلة لا في مزاب فحسب ولكن حيث كنا، فلا يقطع المهاجرون علاقاتهم بالأهل الذين يقلعونهم وراءهم في الراحة، وأخيراً عن طريق التزامهم الزواج داخل القبيلة.

ولعل أبرز ما يميز الزرابيين عن سواهم هو أنهم استطاعوا الجمع بين صفات تميزها تنافسية قد حصلت في بوتقة واحدة. فقد حصلوا في بيئة صحراوية مهددة حياة تجارية مشتركة، تشرف عليها وتدير دفعتها جماعة متمسكة تمسك قوياً بأهداف الدين، وتفرغ في نفس الوقت في حياة حضرية مترفة.

ومن مزايا مواضع معيشة فهي تقوم على بروز صخري لغاية هضبة أو على نتوء منزل عام حوله. وتمتاز الدور بجودة بنائها وتنحدد طوابقها. مساحتها كبيرة تصلها مآذن شمعاء، وطرقها نظيفة جميلة تحتف بها أروقة جانبية مسقوفة. وصفة القول أن هذه المظهر الخارجية تدل على طابعها الخضري القوي.

وتحمل غرداية العاصمة مركز الصدارة من حيث حجمه (20,000 نسمة) ومن حيث أهمية الخدمات الإدارية والتجارية والمالية التي توفرها. والكثافة السكانية داخل المدينة - كا يستدل عليها من الأرقام - كبرى، إذ تراوح بين 700 و800 نسمة للهكتار الواحد. وهذه الكثافة العالية تعد من سمات السكان الصحراوية القديمة التي يكتسب فيها السكان اكتظاظاً شديداً على رقعة صغيرة من الأرض.

وما هو جدير بالذكر أن أصحاب التجارة من الزرابيين من أبرز دعامات تجارتهم التجاري، من أبرزها القدرة على التكيف مع مختلف الظروف. ففي عصر ازدهار التجارة القوافل نجحوا في تحويل تباراتهم الرئيسية إلى إقليمهم. فلما أضمنت وكادت تقطع ولم ووجههم شطر وسائل النقل الحديثة استجابة للغير الذي شهدته الصحراة، وعملوا
على احتكار حركة النقل وتنظيم خدماتها عبر قسم كبير من الصحراة، كذلك أصبحت غرداية المركز التجاري الرئيسي للصحراء الشمالية الغربية، مما كان له آثار كبيرة في تقدم العمران بها.

من ذلك نرى أنه تحقق خلال الفترة التي نحن بصددها دراستها تقدم حضري لبعض المراكز الكبيرة التي تمت وازدهرت بالفعل تعزيز وظائف قديمة كانت تمارسها أو ظهرت وظائف جديدة ألغتها بها. وتخض ذلك عن انسحاباً في رقعتها وخصوصاً في أحياها. فإلى جانب القصور القديمة وتواجها الجديدة التي تدور في فلكها ظهرت أحيا للإدارة بجانبها الكبيرة، وأخرى للتجارة محاذيتها وتعازفها وشوارعها الغاصة بالعادين والرائحين، وثانية للسكان الأوروبيين «بشيلان» الأثيقية. وتمتاز هذه الأحياء الأخرى بطرقاتها العريضة المستقيمة، وبساحتها المتسعة. وتشغل من أجل ذلك مساحة كبيرة بالقياس إلى العدد القليل لسكانها. ويسوقنا هذا إلى تقرير الحقيقة الآتية وهي أن تخطيط المدن الصحراوية في تلك الآونة لم يراع في الاختلاف بين الأحياء من ناحية الوظيفة فحسب ولكن أيضاً من حيث الناحية الاجتماعية والعنصرية. ونوعية الأحياء على هذه الصورة ظاهرة عامة في مدن الشمال الأفريقي والشرقين الأوسط والأقصى وبعض مدن الأمريكان. على أن هذه النوعية أكثر وضوحًا في المدن الصحراوية التي عرفت الاستعمار.

تحل من ذلك إلى أن المدن الواحة الكبيرة التي أشارنا إليها ازداد حجمها وما عدد سكانها نمواً كبيراً خلال هذه الفترة. وعندما نحاول تقصي أسباب هذه الزيادة الديموغرافية نجد ترجع إلى عوامل ثلاثة: أولها التكاثر الطبيعي للسكان والذي يقصد به زيادة عدد المواليد على عدد
الوفيات. وثانياً، مهاجرة الفروين من أهالي الواحات ونروهم من البدو إلى المراكز الحضرية. أما العامل الثالث فهو استقرار البدو الذي استفحل أمره طوال هذه الفترة على إثر القيود التي فرضت عليهم في تنقليهم الرعوية، وكذلك انقطاع احتكارهم لتجارة القوافل وحراساتها بعد تذهورها.

ومن نماذج استقرار البدو التي تستحق الذكر استقرار جماعات المحادمة، تقع مواطن المحادمة بالقرب من الواحات ورقة إلى الشمال الغربي والغرب والجنوب الغربي منها. وبلغ عدد أفرادها قرابة 5000 شخص، ونظام الحياة لديهم كان يستند حتى عهد قريب إلى البداية والانتقال من مكان إلى آخر، وكانت جماعاتهم تصل في تجاورها إلى مسافات تتجاوز أحياناً 200 كيلومتر من ورقة مكان تجمعهم الرئيسي. وقد اضطروا تحت ضغط الظروف السياسية والاقتصادية التي أشرنا إليها آنذاك إلى التقليل من اقتناهم للحيوان، وإلى الحد من حركاتهم، بينما طالت فترة إقامتهم شتاء في خيامهم تحت أسوار المدينة. وقديماً كانت لهم بعض الدور في المدينة يستخدمونها صوامع للغلال ومستودعات. فلما طالت فترة مكثتهم بالقرب من الواحة وازدادت حاجاتهم اليومية شيوعاً عدداً من المستودعات بالقرب من مضارب خيامهم، ثم لم يلبسوا أن بنوا منازل من حول هذه المستودعات وبذلك انطلقوا من سكين الخيام إلى سكني الدور المبنية. وتقوم هذه الدور حالياً متفرقة بين أشجار التخيل إلى الجنوب الغربي من واحة ورقة. وقد كان لدق الآبار الارتوازية منذ عشرين عاماً تقريباً أثر لا يستهان به في استقرار المحادمة. على أن هذا التحول عن حياة البداية ازدادت سرعان ابتداء من عام 1955 نتيجة لاكتشاف البرول والغاز الطبيعي وما صاحبهما من طلب متزايد على الأيدي العامة.
إن القام لا يتعه أن نقول الكلام عن الخدمة وحسبا أن نفصل الحديث عنهم بالنظر إلى نسبة من احتفظ منهم بحجة البداوة. إنها لا تتجاوز 5 بالميزة من المجموعة، فضلاً عن أن النقلات الرعوية لم تعد تنقلات جماعية كبيرة في أوقات منتظمة، بل تفتكت وانقسمت إلى وحدات صغيرة، تنقثلها غير منتظمة ومسافات قصيرة. وهكذا نحولت الغالبية العظمى من الخدمة (95 بالميزة) إلى مختلف أنواع النشاط الفلاحي والتجاري والعسكري. على أن النشاط الصناعي في المراكز البرولية أخيراً يستأثر بكمتهم.

иما لا أرى فيه أن نزوح الناس من البوادي ومن البداءية إلى المدينة ترتب على أن آثار جماعية لها خطرها. فالقصر القدوم يؤلف وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية، وأنا لكدد من هذه العلاقات والأوامر القرامية تتعدي حدود قصر إلى قصور أخرى إلا فيما ندر. أما المدينة الراحية الكبيرة فقد أصبحت تحكي أساساً من مختلف القصور ومن البوادي والبداية، قدموا إليها من مثابث جغرافية وقبولية مختلفة مما أضعف الصلات القرامية نوعاً. ففي ظل القصر القدوم مستغفل، بصلة القبلة والرحم نرى المجتمع الحضري في إطاره الحديب أخذ يصور صياغة جديدة أسس العلاقات التي تربط بين أعضائه.

هج قدن الآن الوقت لنقرر أن قوة جاذبية البلد الكبيرة التي احتكرت أو كانت الوظائف الحضرية والنمو الديموغرافي عاقلة نمو المراكز الصغيرة. فالنشاط التجاري أفاد من وجود الوظيفة الإدارية والسياسية في البلد الكبيرة التي يقدم إليها الأشخاص من مختلف الراحية التابعة لها تستوية مشكلاتهم الإدارية والقضائية. وهم إذ يقومون بذلك ينتظرون فرصتهم وجودهم في المدينة لشراء بعض حاجياتهم من أسواقها ومتاجرها. وما
ساعد على ذلك وسائل التواصل الحديثة التي أتاحت نقل الناس والسلع بسرعة من وإلى المدينة الكبير وتركيز تجارة الحلي فيها. وكل ذلك أضعف من اتصال القرى القديمة بالصحراء وبالعالم الخارجي إلا إذا كان هذا الاتصال عن طريق المدينة الرئيسية.

وفي هذا المجال تنبغي الإشارة إلى هذه المراكز التي كان يمكن أن ترقى إلى مرتبة المدينة ولكنها فشلت في ذلك. ولنضرب لذلك مثال مدينة فجيج في المغرب. تقع واحات فجيج في أقصى الجنوب الشرقي من البلاد ملاصقة للحدود مع الجزائر حتى الصب عليها القول بأنها نهاية العالم. وما لا شك فيه أن مثل هذا الموقع المترتفع لا يساعد كثيراً على النمو الحضري. إلا أنه من الحق ألا نتجاهل أن فجيج مزودة بمراكز إدارية كبيرة، كما أتباها بورجوازية صغيرة تمارس التجارة و بعض الصناعات التقليدية وأمور التعليم. وكل ذلك كان يمكن أن يصلح كسماً للنمو الحضري.

أهم شيء يسرعي انتباه الباحث هو هجرة سكان فجيج بأعداد متزايدة. وقد كانت هذه الهجرة في الماضي موقفنا، وكان المهاجرون يعودون إلى موطنهم في فصل الخريف للقيام بالأعمال الفلاحية. ومنذ الحرب العالمية الثانية أصبحت الهجرة شبه دائمة. ولم تعد تقتصر على الذكور كما هي الحال في مزاب، فضلاً أن معظم المهاجرين يتحولون إلى عمل سواء أكان ذلك في مراكز التعدين القريبة من فجيج في المغرب الشرقي أم في أوروبا وعلى وجه الخصوص في فرنسا. وسبب هجرة العناصر العامة الشيشة أدرك التدهور حقول ال الواحة، كما أن بعض المهن والحرف اختفت بعد أن رحل الكثير من أصحابها سعياً وراء الرزق في مكان آخر. وبلغ عدد سكان فجيج 12,000 نسمة وهذا العدد في تناقص. وتكاد تكون فجيج قرية أكثر منها مدينة، وقصتها في الواقع
هي قصة مركز حضري قد نصب معين تقدمه.

وهناك على عكس ذلك تجمعات قروية أخذت تنبعث فيها المظاهر الحضرية، وقد لا يمضي عليها وقت طويل حتى ترقص إلى مرتفعات المدن.

ومن أمثلة ذلك قصر الحرف في إقليم تافيلالت بجنوب المغرب. فعلى الرغم من الوفرة السكانية في واحات تافيلالت فإن الحياة الحضرية فيها تكاد تقتصر على افراد (10000 نسمة) وهي مدينة حديثة خلقت خلفًا حوالى سنة 1925 لنكون المركز الإداري الرئيسي للأوليم. ومن التصور دائما ما يتجاوز عدد سكانه 1500 نسمة، وقرية الحرف بلغ عدد سكانها قرابة 1500 نسمة. وهي ليست قصراً واحداً، ولكنها عبارة عن ثلاثين أو أربعين قصراً التحت بعضها فبدأت تربية كبرى ضخمة. ومن أهم ظهورات التطور الحالي أقرب عالم البادية من عالم الحضور فيها وتعد أنواع النشاط التجاري ونحو الخمسة المرتبطة بالقطاع الثالث، وذلك لسد حاجيات السكان المتزايدة ولا سيما بعد انتشار التعليم بين أبنائها.

5 - الوظائف الجديدة

البترول والغاز:

حسبنا ما تقدم من شرح للدور الذي لعبه الاستعمار الأوروبي وأهميته في الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية. ونتقل الآن إلى الحديث عن التغيرات الاقتصادية التي طرأت على الحياة الحضرية كنتيجة لاستنفط البترول. إن الاكتشافات الحديثة لحقول البترول والغاز الطبيعي جعلت الصحراء تدخل في مجال اقتصادي من نوع جديد. وقد أثرت هذه الاحواج تأثيراً إيجابياً عميقاً بهذا النشاط، وذلك عندما تقع المدينة على مقربة من أماكن التنقيب عن البترول أو من أحيائها استخراجه. بل
إن مجرد وجود المدينة علي خطوط الطرق التي تسلكها آثار الطوق، أو الغاز إلى مواني التصدير كان من دوافع النمو الحضري. إن امتداد استنباط الطوق إلى الصحراء أدى إلى تدفق شديد لأفواج المهاجرين إلى المراكز الطوقية طمعاً في تحقيق مستوى أرفع من التاحة الاقتصادية. وشارك في هذه المهاجرة سكان الواحات والبدو على حد سواء. وأخطر مشكلة اقترن براءذة الهجرة كانت اختلاط النواز في سوق الأيدي المعمولة في صالح الاقتصاد الحديث وعلى حساب أنواع النشاط التقليدية من فلاحة في الواحات أو حياة رعوية بدوية والتي يعيش أصحابها عادة في ظروف اقتصادية واجتماعية شديدة. وهذا فتح اكتشاف الطوق أمام سكان الارواح أرобыاً واسعة حياة أورغرها وآمر رهاء. وقد جعل النشاط الجديد أهمية كبيرة للاقتصاد التقليدي. وبدأ أن الأجور المرتفعة والمنظمة أدت إلى زيادة الطبق على المواد الاستهلاكية وبالتالي إلى زيادة المبادرات التجارية، وعاد ذلك على المدن الواقعة الكبيرة ولا سيا الأغواط ووفرة بالخير العميم.

قدمية الأغواط أصبحت مركزاً لإقليم حسي الرمل الغبي بالفاز الطبيبي، وتعت مناطق استخراجه على مساحة مائة كيلومتر جنوب شرق المدينة. أما توفرها فقد أضيفت إلى وظائفها المتعددة ووظيفة الطوقية وذلك منذ انشاء محطة ضخ نمت طاق البول الذي يصل حقول البول حسي مسئولة بمثابة أرزاب على البحر المتوسط. وامتدت رقعة المدينة بعد أن قامت أجواء جديدة قرب مدينة مقربة من الطريق الذي يصلها بمحطة ضخ البول.

وتغتير ورقلة مثلها للمدينة التي ازدهرت بسبب تقدم الصناعة الطوقية. غير أن تقدم المدينة لا يعمر إلى البول وحده. فقد ارتبطة نهضة المدينة بائدة ذي بداء بالتوسع في زراعة الحقول والبساتين وازدادت أهميتها.
كسور كبيرة لسكان القرى والبدو الرحل نتيجة لتعزيز وظائفها الإدارية. ثم تلا ذلك مرحلة التنقيب عن البترول وعمليات استخراجه. وفيها خطط المدينة في تقدمها خطوات واسعة. ذلك أنها لا تبعد بأكثر من 70 كيلومتراً من أبار حسي مسعود مما جعلها ملاذاً ومدينة ترفية يأتى إلى مروجها الخضر وظلها الظلل من أن إلى أن المشتغلون باستخراج البترول. والمدينة موقع ممتاز بتوسط طرق المواصلات مما عزز وظائفها الإدارية وأكسبها أهمية كبرى. فلا غرو أن اختارتها السلطات عام 1959 عاصمة لعئالة الراوات بدلاً من الأغواط التي تشير مركزاً متفوقاً في خريطة المواصلات.

هذا ويقع القصر القديم على تل يتوسط الراحة، طرقاته ضيقة ملونة ومغطاة جزئياً. على أن القصر لم يعد يقوى على استيعاب كل سكانه نظراً للزرواية المطردة في أعدادهم، ومن ثم بدأت تظهر المساجن خارج الأسوار. وفي نفس الوقت امتدت الأحياء العصرية إلى الجنوب الغربي بعيداً عن التخيل حتى لا تطغى مبانها على الأرض الزراعية، مكونة مدينة حديثة متطورة، تجمع فيها مختلف المباني الإدارية والفخيرة ودور السياح والمحلات التجارية من كل نوع. وقد أدى إنشاء مبانها الحموي ومتناوقة النمذجة لسيارات النقل إلى أن أصبحت ورقة مركزاً رئيسيًا للمواصلات صوب الجنوب، والحدود الشرقية، وتحوط منطقة الهقار والسودان، وأخيراً إلى حوض بترول عاجلة بالقرب من الحدود الليبية.

بديهي أن هذه المدن الثلاثة - الأغواط وتوغرت وورقلة - لم تكن تزدهر ويتقدم فيها العمران على هذا النحو لو أن نشاطها اعتمد فقط على موارد واحاتها وما يتصلى بها الموارد من مبادلات تجارية محدودة. على أنه لا بد من أن نقرر أيضاً أن ازدهار هذه المدن أتى بتفهير...
للنفاحية ولأهمية الاقتصادية. فاكتشاف البرُول واستغلاله أدَا إلى حالة من حالات الاضطراب وفقدان التوازن نجمت عن الانتقال من نظام اقتصادي تقليدي إلى اقتصاد يقوم على أسس حديثة عصرية.

ويبلغ بانا الآن أن نعيد النظر في حالتنا أجدنا (في النيل). فقد سبق أن أشرنا إلى أنها مدينة اعتيدها الاضحلال نتيجة تدهور تجارة القوافل. على أن هناك بريق أمل في إحياء المدينة بعد اكتشاف ساحات واسعة من الصخور التي تتضمن مركبات الأورانيوم في منطقة آريلت التي لا تبعد عنها أبداً من مائي كيلو متر. والمخروض أن تقوم مدينة معدنية تضم بضع مئات من الأروبيين ووضع آلاف من الأفريقيين.

ونظراً إلى أن المحتوى الغذائي للهامات الأورانيوم ضعيف فصيص تعزيزه محلياً أمراً ضرورياً بغية تحاشي نقل الخدمات الثقيلة مسافات بعيدة. ولابد أن سيكون لوجود هذا المركز تصنيعي أثر طيب على مستقبل مدينة آجدز.

السياحة:

من بين الوظائف الرئيسية التي ظهرت في المدينة - وكانت أيضاً خلاقة لبعضها - الوظيفة السياحية، وهي مظهر حديث من مظاهر المدينة المعاصرة سجل تقدماً كبيراً في السنوات الأخيرة، علامة على أن السياحة تشكل قطاعاً اقتصادياً غير هام بالنسبة لكثير من الدول. وقد تناولت الحركة السياحية، فيها تناولت من أنفي الصحراء، وليس غريباً أن يدا فيها هذا النشاط. فالسياح يتأسس ويتأسس بها بآفاقها الواسعة العريضة، ويعضل دائماً من روعة ورحبة، ومن جمال وجلال.

والوظيفة السياحية ليست بالضرورة وظيفة حضرية. ولكن في الصحراء يصعب تصور قيامها خارج الواجهات. ومن ثم كانت المدن الواجهة مهيأة
فلا تصبح مراكز سياحية لا سياحاً وأنها تتضاء بوجود بعض المراقبة الحضرية }

الضرورة كشبكة المياه التي تؤمن حاجة سكان المدينة من مياه الشرب 
وشبكة المجاري التي تجمع المياه المتلدة وتسحبها إلى منطقة بعيدة عن 
المدينة وتصرفها بطريقة صحيحة، وشبكة التيار الكهربائي للإرارة ... وكل 
ذلك يجعل عملية التجهيز السياحي في هذه المدن أقرب مثالاً وأيسر سابقاً 
منه في أي جهة أخرى.

وقد أخذت بعض الحكومات التي لها نصيب في الصحراء في بذل 
كثير من الجهود والجهد بجهود السياحة. ففي المغرب مثلاً وضع التصميم 
الثلاثي للسنوات 1965 و1966 و1967 السياحة بين أهدافه الأربعة 
ال 소개. كذلك ترصد الجزائر وتونس ولبنان مبالغ كبيرة من ميزانيتها 
لبناء الفنادق والمنشآت السياحية المختلفة. ولكن كان صحيحاً أن المناطق 
الصحراوية في هذه الأطراف لا تستثير بكل هذه المبالغ إلا أن نصيبها منها 
لا يستهان به. وعلى أن السؤال الذي يتبارد إلى الذهن في هذا المجال 
هو إلى أي حد يعتبر التوسع السياحي في الصحراء عملية مربحة للدولة 
من الناحية الاقتصادية. ذلك أن هذا التوسع تقلبه هذا صورات وعقبات 
تحت الأقلاع الأخرى الكثير منها. فكل شيء يدل على أن النهضة 
السياحية في الصحراء تعتمد على الاكتشافات التي تمنحها الدولة بمساهمة 
لتشير أسباب المواصلات الحيوية ومستوى الطرق وصيانةها وبناء الفنادق 
والقيام بأعمال دعائية أولية لا معدّة من القائم بها. تطور التيار 
الكهربائي إلى المنشآت السياحية وتزويدها بالمياه وذلك في جهات كثيرة 
منها تكون محدودة من هذه الدعائم الأولية. ومن جهة أخرى فإن الفصل 
السياحي في الصحراء يميز بقصره ويؤكد أنصر في فترات العطلات 
السياحية والريفيّة. فابتداء من مايو حتى أواخر سبتمبر تتفن درجة 
الحرارة وتستدح حمأة القلم، ولا يرتفع الناس إلى ارتقاء الصحراء 
آذانًا. ويزيد على ذلك أن ينخفض معدل استخدام الطاقة الإسكانية
للفنادق أي أن يقل عدد الأيام التي تصبح فيها الفنادق عامةً بالسياح.

ومع ذلك لا بد من التسهيل بأن الحانب الإيجابي لهذا النشاط لا يمكن تجاهلها. وآية ذلك أن طاقة الفنادق في نحو مستمر في كل جهة بينها الحركة السياحية تسل لقاء مطرداً حتى لم تعد أشهر الصيف نادرة من أفراد السياح.

وهناك خاصة من خواص الواحات متصلة بالسياحة نشير إليها إشارة وجيزة وهي أن ذلك النشاط لا يقوم مستقلًا بذاته ولذاته، ولكنه مرتبط بالمراكز السياحية الكبيرة التي تقع على حدود الصحراء. وتلعب هذه المراكز دوراً مهمًا كملحق وصل بين العالم الخارجي وعالم الواحات. فهي جنوب القطر المغربي مثالاً توجد مدن تتمتع بشهرة سياحية عالمية وتتوافر على فنادق متنوعة المراتب والدرجات، ومن أبرزها مراكش وأكادير، وتعتبر نقطة الارتكاز الرئيسة منها تبدأ الرحلة - وما أجهزها إن اعتدل الحو ورق الهواء - إلى وازرازات وفاس وفاس واردفود ... وغيرها من المدن الصحراوية التي أصبحت مقصداً السياح وموثى الزوار يفدون عليها من آفاقاً الممورة.

وأخيراً يمكننا أن نشأن عن القيمة الفعلية للسياحة كعامل من عوامل التنمية الاقتصادية والتهويل بالإمارات ومدنها. إذا استثمنا المدن الواحية التي مسا الاقتصاد الطرفي أو التي أحيتها الوظائف الإدارية والتجارية، مما سبقت الانتشار إليها فإن الغالبية العظمى من مراكز تجمع السكان لا يستطيع اعتبارها مدنًا صريحة على الرغم من أن عدد سكانها قد يصل إلى أكثر من عدة آلاف نسمة، وإذا أنعمنا النظر في بعض هذه المجتمعات ذات المسحة الحضارية أدركنا أن هذه المسحة تولدت من أن هذه المراكز في الواقع قد أضحت العضو الوحيد الحي في جسم الراحة.
الذي ذُهب فيه الحمول، ومن ثم كانت الأعمال المرتبطة بالتوسع السياحي من ناحية الصناعات التقليدية المحلية لبعض الأعمال، إن لم يكن كل نشاطاتها القديمة، ومتعطش ذلك تزداد موارد السكان. كذلك فقد تكون السياحة حافزا على أن تجد المنتجات الزراعية المحلية موقعًا رائجًا لا ترتقي فقط على التوسع الخضري ونمو المدن في الوديان نفسها ولكن أيضًا على الأسواق البعيدة بفضل التقدم الذي طرأ على وسائل النقل.

لا يزال إذا في أن السياحة تكون بارزة بأمر لازدهار الحياة في الصحراء، وبتصرف النظر عما إذا كان التوسع السياحي فيها يشكل عملية اقتصادية مرنة فانه أداة من أدوات اخراج الصحراء من عزلتها وإشاعة التفتيح فيها.

...  

بسكرة:

لما كانت بسكرة أكبر مدن الوديان في الصحراء وأعظمها شأنًا رأينا أن نفرد لها فقرة خاصة في هذا البحث، ذلك أن المدينة تكاد تلخص كافة الوظائف التي نجدها متفرقة في المدن الوديان الأخرى حتى أصبحت بسكرة ميزانًا لوزن هذه الوظائف.

تحتل المدينة موقعًا متميزًا عند نهاية منخفض يفتح بين جبال أوراس من ناحية وأطلس الصحراء من ناحية أخرى. وقد كان هذا المنخفض على مر العصور منطقة ارتباط مهمة جداً بين الاقليم الصحراوي في الجنوب من جهة ولبنان البحر المتوسط شلالًا من جهة أخرى. ولذلك
لم تكن صدفة أن تجد الوظيفة الحربية في أصول المدينة. فقد كانت حلقة من حلقات خط الدفاع الأمني للإمبراطورية الرومانية. وبعد أن توالت هذه الوظيفة ردحاً من الزمن عادت إلى الظهور أيام العثمانيين والاحتلال الفرنسي حين أصبحت مدينة ترابت فيها حامية عسكرية كبيرة.

أما وظائفها التجارية والاقتصادية فستخدم إلى الموقع والوضع. فيسكة هي السوق الكبيرة والمراكز الرئيسية لبلاد زبان، وهو إقليم غني بواحاته، يقع في حضيض جبال الأنطليس حيث يمتد منخفض عظيم تنتظم فيه مجموعات من الواحات الكبيرة الآهلة بالسكان، الريفية بالخليج، وأشجار الفاكهة. وقد جذب موقع المدنية طرق الموانئ الرئيسية فأصبحت سهلة الاتصال بالعاصمة الحربية بواسطة كل من الطريق البري وخط السكة الحديدية. كما أنها أصبحت قطب تجارة الطرق والمسارب الصحراوية التي تخرج منها جميع الاتجاهات تقريباً. وأخيراً فإن المدينة تقع على خط السكة الحديدية الذي يربط تونس في الجنوب بقسنطينة في الشمال. هذا وتمتّع بسكة مركز القيادة في بلاد زبان، وقد قامت بها مدينة حديثة تمتد منها إلى الشام من الواحة وتحتها، ويتكون فيها النشط الإداري والتجاري.

وفي أواخر القرن التاسع عشر تشهد المدينة ظهور وظيفة جديدة تضم إلى وظائفها الأخرى، وهي الوظيفة السياحية. ولا يمضي وقت طويل على ذلك حتى تزدهر هذه الواجهة وتبني من أجلها فنادقاً يوجه بها الأثرباء من السياح. ووجه خاص البريطانيون حيث عن الشمس وعِن الدفء. وقد تضافت عدة عواصم كي تخلق بسكة مكانة مقومة في عالم السياحة من أهمها سهولة الموانئ إليها، وموقعها عند مدخل الصحراوا بالقرب من جبال أوراس ذات المناظر الخلابة، ثم صفاء
سائها واعتدال حرارةها شتاءً. وينبغي أن نذكر أنه أي على هذه الوظيفة حسن من العمر نبت فيه جذوها. على أن التنمية السياحية الجديدة والرغبة في الكشف عن آفاق جديدة غير مألوفة جعل الصحراوات تجذب إليها السياح من جديد. وأخيراً فإن المدينة تُسمى بنصيب في النشاط البروولي ولو أن ذلك بطريقة غير مباشرة. فبمجرة تقع على ممر رئيسية يربط أقاليم البحر المتوسط بالصحراء المغربية، ويسكر الطريق البري وخط السكة الحديدية. ثم إن المدينة تحت حضرة رئيسية خط الأنابيب الذي ينقل البرون من عام 1958 من حوض حسي مسعود إلى محافظة.

٦ - خامسة

تكشف لنا الدراسة الخريجية للمدن الواحية الكبيرة عن تغيير جوهري طرأ على الحياة الحضرية في السنوات الأخيرة، ويجري في تعدد وظائفها وزيادة عدد سكانها واسع رقعتها. فحين عهد قريب كانت معظم التجمعات في الواحة أقرب إلى القرى منها إلى المدن. ويرجع ذلك إلى أن أهم ما يميز مدن الواحة عن سواها هو تداخل الوظائف الحضرية والقرورية فيها معاً. وظلت المدينة التقليدية الكبيرة خلال عصور مديدة مركزاً إقليمياً لسكان الواحات من المستقرن وقاطباً للجاذبية للبدو الرحل.

وقد صاحبت الفترة الاستعمارية ظاهرتان قد تبدوان لأول وهة متناقضتين ولو أنها في الواقع متكاملتان. فنلاحظ أولاً أن الكثير من هذه المراكز أصابها الاستعمار على أثر اقتصاد التجارة التقليدية وتحرك الرقيق، وبتفتخر المبادلات التجارية تدمرت بعض الخرف والصناعات
التقليدية نظرًا لضعف القوة الشرائية لدى سواد الحماهر في الولادات على أن بعض المراكز ولاسيا الكبيرة أضيفت إلى وظائفها الفروية وظائف جديدة حرية وإدارية وتجارية بما أدى إلى نموها وازدهارها.

ولكن الدفعة الحضرية الكبرى للمدن الرئيسية تؤدي بانتشار البرول والغاز واستغلالهما. وارتباط ذلك بظهور اقتصاد حديث قام فيه النقد مقام القاية فزاد التبادل وعمرت الأسواق. ذلك أن تدفق البرول في الصحراء ساعد على خلق مجاليات للعمل في حقول البرول من جهة وفي المدينة السكنية في هذا النشاط من جهة أخرى. وكان لا بد للمدينة من أن تتجاوز نجاحًا فعليًا مع الاقتصاد الجديد وجماجم السكان ومتطلباتهم وإقامة على السلع الاستهلاكية. فزاد عدد التجار وأصحاب الرزق المختلفة، كما تمت تشكيل الخدمات من بنوك ومكاتب بريد وشركات نقل ... وكان لكل ذلك أبعاد أخرى في إطار تكوين المدينة بسرعة غير مألوفة خلال حقبة قصيرة من الزمن. وحتى إذ نشير إلى هذا النشاط الذي يستند على الطلب المتزايد للأيدي العاملة لبناء ألا نفل أن هذه الحاجة الكبرى إلى الأيدي العاملة من طبعة عمليات انتاج البرول في مراحله الأولى. فإذا ما وصلت آبار البرول إلى أوج انتاجها قلّت الحاجة إلى الأيدي العاملة نجاحًا. هذا ومن أوجه النشاط الاقتصادي الحديث في مدن الولادات السياحية، وهي تكون مصدرًا جديداً للأرواح.

ومن أخطر المشكلات المرتبطة بالطلب المتزايد على الأيدي العاملة في القطاع الاقتصادي الحديث هو من غير شك حرمان الفلاحية الولادة من عناصرها العاملة التي أخذت تدفق نحو مراكز انتاج البرول والتقيب عنه أو صوب المدن. فسكان الولادات أصبحوا يضيفون بواجاتهم وبالعمل المتفقي الذي لا يؤمن العيش - صرف النظر - على العيش.
الكرم - لهم ولذويهم، حتى أن الأجور التي يتقاضونها في مراكز العمل الجديدة - مهمة كانت ضئيلة - فهي بالقياس إلى ما ينير المزارعون كبيرة. وقد نجم عن نزوح الأيدي العاملة من الواحات أن انكشفت الرقة المزرعة وعلى الأخص في الجهات التي لا يعتمد فيها الري على مياه الآبار الارتوازية. ففي الواحات فزان تقلصت المساحات المزرعة إلى ثالث ما كانت عليه عند خمسة عشر عاما تقريباً. بل إن من الواحات ما أصبح قاعاً صفاً بعد أن هجرها أهلوها وتخلىوا عن حدائقها وبساتينها كرواحات وادي الشاطئ التي أصبحت تساب فيها الماء وتتفقد دون استغلال لها.

ويجب أن الواحات مشكلات اقتصادية واجتماعية على درجة كبيرة من التعقيد ليس هنا هذه المرة محالة الحديث عنها. ومن رأينا أنه من الخطأ محاولته الإبقاء بكل الوسائل على اقتصادات الواحات في صورتها الراهنة. صحيح أن الواحات أمدت سكانها خلال عصور طويلة بمجموعة تكاد تكون كاملة من الموارد، وذلك عن طريق انتاج يعتمد على الاستفادة الذاتي. ومن الواضح أن هذا الشكل من الاقتصاد، على الرغم من، نتيجة للتغير الحضاري الذي طرأ على هذه الجهات، وفي نتائج تغير مفهوم الارض ومفهوم العمل فيها عمداً كان عليه منذ سنين قليلة خلت، وله أفضل وسيلة لعلاج أزمة الواحات هو قبول التطور الحالي والعمل على توجيه اقتصادياتها ومنتجاتها بما يتجاوز مع الحاجيات الجديدة والاقتصاد الحديث.

حسن عوض

90
قائمة ببعض المراجع الرئيسية


BONNEFOUS, M. 1952. La palmeraie de Fiqguig, Rabat, 80 p. (Service Central des Statistiques).


DESPOIS, J. 1965. Problèmes techniques, économiques et sociaux des oasis sahariennes Rev. Tunisienne de Sciences Sociales, N° 2, p. 5.31


